وقفة مع: فَارتَقِب يَومَ تَأتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ

كتبه محمد الصغير الجمعة ٢٦ محرم ١٤٤٣

يحاول الشيطان دوما دفعنا إلى أمن مكر الله عز وجل, ومن ثم الخسران, لأن من أمن العاقبة ساء الأدب, وقد قال ربنا عز وجل

﴿ أَفَأَمِنوا مَكرَ اللَّهِ فَلا يَأمَنُ مَكرَ اللَّهِ إِلَّا القَومُ الخاسِرونَ ﴾

الأعراف: ٩٩

بينما يذكرنا ربنا عز وجل دوما بأن عذابه لا ينتظر الآخرة, فأحياناً كثيرة يصيب الذين ظلموا بعذاب شديد في الدنيا بسبب ذنوبهم, مثل ما صار مع الأمم السابقة, وعليه يجب علينا الحذر والترقب خوفا من أن يصيبنا الله ببعض ذنوبنا

﴿ أَوَلَم يَهدِ لِلَّذينَ يَرِثونَ الأَرضَ مِن بَعدِ أَهلِها أَن لَو نَشاءُ أَصَبناهُم بِذُنوبِهِم وَنَطبَعُ عَلى قُلوبِهِم فَهُم لا يَسمَعونَ ﴾

الأعراف: ١٠٠

هذا عموما, فكيف إذا أتى الأمر بترقب العذاب الوشيك

﴿ فَارتَقِب يَومَ تَأتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبينٍ۝يَغشَى النّاسَ هذا عَذابٌ أَليمٌ ﴾

الدخان: ١٠-١١

ارتقب !!!

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر, مما يدل على أن هذا العذاب وشيك, وهذا يعني أننا أحق بالترقب بعد مرور أربعة عشر قرناً, فالعذاب صار أقرب

ارتقب حتى لا يأتي عذاب الله وأنت غافل

هذا العذاب المرتقب دخان مبين يغشى الناس, فلا حول لهم ولا قوة لدفعه لذلك يلجؤون إلى الله ويذعنون

< رَبَّنَا اكشِف عَنَّا العَذابَ إِنّا مُؤمِنونَ >

الدخان: ١٢

إن الناظر في حال أهل الأرض اليوم يجد أنهم قد بلغوا من الكفر والطغيان والفحشاء ما لم يصل إليه أحد قبلهم.

فهم لم يكتفوا بالشرك والآثام, وإنما شرعوها وصيّروها حقا بزعمهم في محاددة لله منقطعة النظير.

لذلك فكل الدلائل اليوم تشير إلى أنه آن أوان عذاب الله الذي يعم أهل الأرض, ولن ينجو منه غير الذين ينهون عن السوء كما سبق ورأينا في قصة أصحاب السبت.

حين تأتي السماء بدخان مبين, يعلم أهل الأرض أن لا منجي لهم غير الله فيلجؤون إليه سبحانه

< رَبَّنَا اكشِف عَنَّا العَذابَ إِنّا مُؤمِنونَ >

الدخان: ١٢

والواقع أنهم ليسوا مؤمنين حقا, فالإيمان المنبثق من قناعة لم يحصل عندهم وأنى لهم أن يؤمنوا وقد كفروا بالأدلة والبراهين الصريحة التي أتى بها رسول مبين

< أَنّى لَهُمُ الذِّكرى وَقَد جاءَهُم رَسولٌ مُبينٌ۝ثُمَّ تَوَلَّوا عَنهُ وَقالوا مُعَلَّمٌ مَجنونٌ >

الدخان: ١٣-١٤

نعم كيف يؤمنون وقد كفروا بالكتاب المبين, الذي جاءهم به رسول مبين لا يريد منه جزاء ولا شكورا؟

فهم لا تنفع معهم حجة, لأنهم أصلا معرضون والعياذ بالله, وما دعوى إيمانهم لما رأوا العذاب إلا دعوى كاذبة اضطرهم إليها الخوف من العذاب, لذلك بمجرد زوال العذاب يعودون لما كانوا عليه من كفر

< إِنّا كاشِفُو العَذابِ قَليلًا إِنَّكُم عائِدونَ >

الدخان: ١٥

وهنا نتوقف مع ملاحظة هامة ما أنفك القرآن يؤكد عليها وهي:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّروا ما بِأَنفُسِهِم ﴾

الرعد: ١١

فما لم يكن التغيير من الداخل لن يحدث تغيير فعلي، وكل ما يظهر من ردود فعل على الأحداث يظل آنيا، يزول بمجرد زوال السبب.

فالناس بمجرد كشف العذاب تعود لما كانت عليه من كفر، لأنهم في الواقع لم يقرروا التغيير من الداخل.

مما يستنبط أيضا من عودة الناس إلى الكفر بعد كشف العذاب أنه لا إيمان لمكره، فبمجرد زوال الإكراه يزول الإيمان، فالإيمان لابد أن يكون عن قناعة راسخة لا تتزحزح، وقد أكد ربنا على هذه الحقيقة مرارا حين قال مخبرا عن الكفار:

﴿ هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ حَتّى إِذا كُنتُم فِي الفُلكِ وَجَرَينَ بِهِم بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحوا بِها جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ وَظَنّوا أَنَّهُم أُحيطَ بِهِم دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ لَئِن أَنجَيتَنا مِن هذِهِ لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ۝فَلَمّا أَنجاهُم إِذا هُم يَبغونَ فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنَّما بَغيُكُم عَلى أَنفُسِكُم مَتاعَ الحَياةِ الدُّنيا ثُمَّ إِلَينا مَرجِعُكُم فَنُنَبِّئُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَ ﴾

يونس: ٢٢-٢٣

فالإيمان الناتج عن خوف طارئ إيمان لحظي يزول مع زوال الخوف.

الويل للإنسان ما أكفره !!!

أتته الآيات البينات الصريحة التي لا يمكن له رفضها، فهي نور كالشمس في وضح النهار

ورأى ضعفه أمام عذاب الله وأنه لا منجأ منه إلا بالرجوع إلى الله

ومع هذا كله يكفر؟!

الويل له ما أشد انتقام الله منه

‹ يَومَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرى إِنّا مُنتَقِمونَ ›

الدخان: ١٦

فقد استحق الإنسان بكفره أسوأ عذاب والعياذ بالله من الكفر والعصيان.